الباب الثالث

اللامبالاة بالذنوب والمعاصي

عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «**إنَّ المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه، وإنَّ الفاجر يرى ذنوبه كذباب مرَّ على أنفه، فقال به: هكذا**»، فقال أبو شهاب: «بيده فوق أنفه»[1].

---

(١) أخرجه البخاري.

obeikandl.com

اللامبالاة بالذنوب والمعاصي

إن من الأمور التي فشت وانتشرت وأزكمت الأنوف، تلك الظاهرة التي إن دلت، فإنما تدل على اللامبالاة وهي التي تجر صاحبها إلى أرجاس الذنوب، والوقوع في سخط علام الغيوب، ألا وهي: اللامبالاة باقتراف الذنوب والمعاصي، فرأينا من يكذب ولا يبالي، ويسرق ولا يبالي، ويقذف ولا يبالي، ويشرب المحرمات ولا يبالي، ومن تتبرج ولا تبالي، فإذا ناصحته وخوفته انبرى يقول: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (المائدة:٩٨)، ونسي أن الله هو القائل أيضًا: ﴿أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (المائدة:٩٨)، بل اعتمد الكثير على عفو الله وكرمه، ونسوا أن الله خلق الجنة، وخلق لها أهلها، وخلق النار، وخلق لها أهلها.

يقول ابن القيم ـ رحمه الله ـ: وكثير من الجهال اعتمدوا على رحمة الله وعفوه وكرمه، فضيعوا أمره ونهيه، ونسوا أنه شديد العقاب، وأنه لا يرد بأسه عن القوم المجرمين، ومن اعتمد على العفو مع الإصرار على الذنب فهو كالمعاند.

قال معروف: رجاؤك لرحمة من لا تطيعه من الخذلان والحمق.

وقال بعض العلماء من قطع عضوًا منك في الدنيا بسرقة ثلاثة دراهم، لا تأمن أن تكون عقوبته في الآخرة نحو هذا، وقيل للحسن أراك طويل البكاء، فقال أخاف أن يطرحني ولا يبالي، وكان يقول إن قومًا ألهتهم أماني المغفرة حتى خرجوا من الدنيا بغير توبة، يقول أحدهم: لأني أحسن الظن بربي، وكذب، لو أحسن الظن لأحسن العمل، وسأل رجل الحسن، فقال: يا أبي سعيد، كيف نصنع بمجالسة أقوام يخوفوننا حتى تكاد قلوبنا تطير؟، فقال: والله لأن تصحب أقوامًا يخوفونك حتى تدرك أمنا، خير من أن تصحب أقوامًا يؤمنونك حتى تلحقك المخاوف.

قال ابن القيم أيضًا بعد أن ساق أحاديث الوعد والوعيد:

قال أبو الوفاء بن عقيل: احذره ولا تغتر به فإنه قطع اليد في ثلاثة دراهم، وجلد الحد في مثل رأس الإبرة من الخمر، وقد دخلت امرأة النار في هرة، واشتعلت الشملة نار على من غلها، وقد قتل شهيدًا، وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية: حدثنا الأعمش عن سليمان بن ميسرة عن طارق بن شهاب يرفعه قال: «دخل رجل الجنة في ذباب، ودخل رجل النار في ذباب»، قالوا: كيف ذلك يا رسول الله، فقال: «مر رجلان على قوم لهم صنم لا يجوزه أحد حتى يقرب له شيئًا، فقالوا لأحدهما: قرب قال: ليس عندي شيء، قالوا: قرب ولو ذبابًا، فخلوا سبيله فدخل النار، وقالوا للآخر: قرب، فقال: لا أقرب لأحد شيئًا من دون الله - عَزَّ وَجَلَّ -، فضربوا عنقه، فدخل الجنة»[1]؛ وهذه الكلمة الواحدة يتكلم بها العبد يهوي بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب.

خطورة اللامبالاة بالذنوب والمعاصي

أخرج البخاري عن أنس ﷺ قال: **«إنكم لتعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشَّعر، وإن كنا لنعدها على عهد رسول الله من الموبقات»**[2].

ذكره البخاري تحت باب (ما يتقي من محقرات الذنوب).

قال الحافظ ابن حجر: والتعبير بالمحقرات وقع في حديث سهل بن سعد رفعه: «إياكم ومحقرات الذنوب، فإنما مثل محقرات الذنوب كمثل قوم نزلوا بطن

---

(١) صحيح موقوف: لم أقف عليه مرفوعًا، وقد أخرجه أحمد في «الزهد» (ص٢٢)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢٠٣١١)، والبيهقي في «الشعب» (٥/ ٧٣٤٣).

(٢) أخرجه البخاري (ح٦٤٩٢).

واد، فجاء ذا بعود وجاء ذا بعود حتى جمعوا ما أنضجوا به خبزهم، وإن محقرات الذنوب متى يؤخذ بها صاحبها تهلكه»[١].

وعند النسائي وابن ماجه عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال لها: **«يا عائشة إياك ومحقرات الذنوب، فإن لها من الله طالبًا»**[٢].

وقال ابن بطال ـ رحمه الله ـ: المحقرات إذا كثرت صارت كبارًا مع الإصرار، وقد أخرج أسد بن موسى في الزهد، عن أبي أيوب الأنصاري قال: إن الرجل ليعمل الحسنة، فيثق بها، وينسى المحقرات فيلقى الله، وقد أحاطت به، وإن الرجل ليعمل السيئة، فلا يزال منها مشفقًا حتى يلقى الله آمنًا[٣]، فالذنب وإن كان في عينك صغيرًا إلا أنه عند الله كبير.

قال الأوزاعي ـ رحمه الله ـ: سمعت بلال بن سعد يقول: لا تنظر إلى صغر الخطيئة، ولكن انظر إلى من عصيت[٤].

وقال الفضيل بن عياض: بقدر ما يصغر عندك يعظم عند الله، وبقدر ما يعظم عندك يصغر عند الله.

* وها هو عبد الله بن مسعود رضي الله عنه من تربى في مدرسة الإيمان ونهل من فيض القرآن، يصور لنا صورة المسلم الخائف من ربه الراجي ثوابه، وصورة ذلك العبد الذي لا يبالي بما يصنع ولا يقول:

---

(١) أخرجه أحمد بسند حسن، ونحوه عند أحمد والطبراني من حديث ابن مسعود.

(٢) وصححه ابن حبان.

(٣) «فتح الباري» (جـ١١) ـ (ص٣٣٧).

(٤) أخرجه أحمد في «الزهد» (٤٦٠).

obeikandi.com

عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: «**إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مرَّ على انفه، فقال به: هكذا**»، قال أبو شهاب: بيده فوق أنفه[1].

قال الحافظ: قال ابن أبي جمرة: السبب في ذلك أن قلب المؤمن منور، فإذا رأى من نفسه ما يخالف ما ينور به قلبه، عظم الأمر به، والحكمة في التمثيل بالجبل أن غيره من المهلكات قد يحصل التسبب إلى النجاة منه، بخلاف الجبل إذا سقط على الشخص لا ينجو منه عادة، وحاصله: أن المؤمن يغلب عليه الخوف، لقوة ما عنده من الإيمان والمراقبة يستصغر عمله، ويخشى من صغير عمله السيء.

وقال المحب الطبري: إنما كانت هذه صفة المؤمن لشدة خوفه من الله وعقوبته، لأنه على يقين من الذنب وليس على يقين من المغفرة، والفاجر قليل المعرفة بالله، فلذلك قل خوفه واستهان بالمعصية.

وقال ابن أبي جمرة: والسبب في ذلك أن قلب الفاجر مظلم، فوقوع الذنب خفيف عنده، ولهذا تجد من يقع في المعصية إذا وُعظ يقول: هذا سهل.

قال ابن حجر: والحكمة في تشبيه ذنوب الفاجر بالذباب كون الذباب أخف الطير وأحقره، وهو مما يعاين ويدفع بأقل الأشياء.

وقال ابن بطال: يؤخذ منه أنه ينبغي أن يكون المؤمن عظيم الخوف من الله تعالى من كل ذنب صغيراً أو كبيراً، لأن الله تعالى قد يعذبه على القليل، فإنه لا يسأل عمَّا يفعل ـ سبحانه وتعالى ـ[2] اهـ.

---

(١) أخرجه البخاري (ح٦٣٠٨).

(٢) «فتح الباري» (جـ١١) ـ (جـ ٦٣٠٨) ـ (ص١٠٨-١٠٩).

obeikandi.com

أثر اللامبالاة بالذنوب والمعاصي على الفرد والمجتمع

اعلم ـ علمني الله وإياك ـ أن لجراحات الذنوب واللامبالاة بها أثرٌ كبيرٌ على:

١ ـ القلب. ٢ ـ والبدن. ٣ ـ والمجتمع.

فهي تؤثر على القلب: بالظلمة والران، وطمس نور البصيرة . . وعلى البدن: سواد في الوجه، وبغض في قلوب الخلق، وتورث صاحبها الذلة والهوان . . وعلى المجتمع: بمحق البركة، وتسلط الأعداء، والأخذ بالسنين وشدة المؤنة، وجور السلطان.

* وهيا لنقف مع تلك الآثار التي تولدت عن اللامبالاة بالذنوب:

أولاً ـ أثرها على القلب:

قلب المرء هو ملك جوارحه، فمتى صلح الملك صلحت الرعية، وكذا متى صلح القلب صلحت الأعضاء، قال أبو هريرة رضي الله عنه: **«القلب ملك والأعضاء جنوده، فإذا طاب الملك طابت جنوده، وإذا خبث القلب خبثت جنوده»**[(١)].

ـ وهيا لنعيش مع تلك الآثار المؤلمة التي تنتج عن اللامبالاة بالذنوب:

أولاً ـ **موت القلب:** وهذا هو أخطر الآثار على القلب، لأن الذنوب تتفاوت، فمنها: ما يميت القلب، ومنها ما يمرضه، ومنها ما يطبع عليه، وسنعرفها بالتفصيل ـ إن شاء الله تعالى ـ.

يقول ابن القيم ـ رحمه الله ـ: والقلب الثاني: ضد هذا، وهو القلب الميت الذي لا حياة به، فهو لا يعرف ربه، ولا يعبده بأمره وما يحبه ويرضاه، بل هو واقف مع شهواته ولذاته، ولو كان فيها سخط ربه وغضبه، فهو لا يبالي إذا فاز

---

(١) «امتحان القلوب» (ص٦).

بشهوته وحظه رضي ربه أم سخط؟!، فهو متعبد لغير الله حبًا وخوفًا ورجاءًا، ورضًا وسخطًا، وتعظيمًا وذلاً، إن أحب أحب لهواه، وإن أبغض أبغض لهواه، وإن أعطى أعطى لهواه، وإن منع منع لهواه، فهو آثر عنده وأحب إليه من رضا مولاه، فالهوى إمامه، والشهوات قائده، والجهل سائقه، والغفلة مركبه، فهو بالفكر في تحصيل أغراضه الدنيوية مغمور، وبسكرة الهوى وحب العاجلة مخمور، ينادى إلى الدار الآخرة من مكان بعيد، ولا يستجيب للناصح، ويتبع كل شيطان مريد، الدنيا تسخطه وترضيه، والهوى يصمه عما سوى الباطل ويعميه، فهو في الدنيا كما قيل في ليلى:

عدو لمن عادت وسلم لأهلها ... ومن قربت ليلى أحب وأقربا

فمخالطة صاحب هذا القلب سقم، ومعاشرته سم، ومجالسته هلاك[1].

قال محمد بن واسع: الذنب على الذنب يميت القلب.

وقال ابن الجوزي: لا تحتقر يسير الذنب، فإن العشب الضعيف يفتل منه الحبل القوي، فيختنق به الجمل السمين.

الثاني - **أنها تطبع على القلب:** يقول ابن القيم: أن الذنوب إذا تكاثرت طبع على قلب صاحبها، فكان من الغافلين، كما قال بعض السلف، في قوله تعالى: ﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (المطففين: ١٤)، قال: هو الذنب بعد الذنب.

وقال الحسن: هو الذنب على الذنب، حتى يعمى القلب، وقال غيره: لما كثرت ذنوبهم ومعاصيهم أحاطت بقلوبهم، وأصل هذا أن القلب يصدأ من المعصية، فإذا زادت غلب الصدأ حتى يصير رانًا، ثم يغلب حتى يصير طبعًا،

---

(١) «إغاثة اللهفان» (١٦-١٧).

وقفلاً وختمًا، فيصير القلب في غشاوة وغلاف، فإذا حصل له ذلك بعد الهدى والبصيرة، انعكس فصار أعلاه أسفله، فحينئذٍ يتولاه عدوه ويسوقه[١].

ثالثًا - **فإذا لم تطبع عليه، أمرضته وأصابته بالسقم:** يقول ابن القيم أيضًا: ومن عقوبتها أنها تصرف القلب عن صحته واستقامته إلى مرضه وانحرافه، فلا يزال مريضًا معلولاً لا ينتفع بالأغذية التي بها حياته وصلاحه، فإن تأثير الذنوب في القلوب كتأثير الأمراض في الأبدان، بل الذنوب أمراض القلوب، ودواؤها ولا دواء لها إلا تركها، وقد أجمع السائرون إلى الله أن القلوب لا تعطى مناها حتى تصل إلى مولاها، ولا تصل إلى مولاها حتى تكن صحيحة سليمة، ولا تكون صحيحة سليمة حتى ينقلب داؤها فيصير نفس دوائها، ولا يصلح لها ذلك إلا بمخالفة هواها، فهواها مرضها، وشفاها مخالفته، فإن استحكم المرض قتل، أو كاد، وكما أن من نهى نفسه عن الهوى كانت الجنة مأواه، فكذا يكون قلبه في هذه الدار في جنة عاجلة لا يشبه نعيم أهلها نعيم البتة، بل التفاوت الذي بين النعيمين، كالتفاوت الذي بين الدنيا والآخرة، وهذا أمر لا يصدق به إلا من باشر قلبه هذا وهذا[٢].

ويقول في (إغاثة اللهفان): والقلب الثالث له حياة، وبه علة، فله مادتان تمده هذه مرة وهذه أخرى، وهو لما غلب عليه منهما، ففيه من محبة الله تعالى والإيمان به، والإخلاص له، والتوكل عليه ما هو حياته، وفيه من محبة الشهوات وإيثارها والحرص على تحصيلها، والحسد والكبر، والعجب، وحب العلو، والفساد في الأرض بالرياسة، ما هو مادة هلاكه وعطبه، وممتحن بين

---

(١) «الداء والدواء» (ص٨١).

(٢) «الداء والدواء» (ص١٠١-١٠٢).

داعيين داعٍ يدعوه إلى الله ورسوله والدار الآخرة، وداعٍ يدعوه إلى العاجلة، وهو إنما يجيب أقربهما منه بابًا، وأدناهما إليه جوارًا[١].

فالذي لا يبالي باجتراح الذنوب قد مرض قلبه بداء اللامبالاة، فعلاجه ودواؤه الخوف من الله تعالى والإكثار من الاستغفار، وتدبر القرآن الكريم، يقول ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾ (يونس: ٥٧)، وقال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الإسراء: ٨٢)، فالذي يقرأ القرآن ويتدبر معانيه فيقف مع الله، تارة يرى بديع صنعه، وإتقان خلقه للخلق، ويرى الله في أسمائه وصفاته، ويدرك عظمته ـ سبحانه وتعالى ـ ثم يقف مع أهل الجنة وهم يتنعمون، ومع أهل النار وهم يصرخون، ثم يقف مع الدنيا وقد ولت مدبرة، ومع الآخرة وقد أقبلت نحوه مسرعة، فيزيده ذلك إيمانًا، ويشف قلبه من أمراض الشهوات والشبهات، فعندها يرقص قلبه طربًا وفرحًا، وأنسًا بربه، واشتياقًا إليه، وارتياحًا بحبه، وطمأنينة بذكره، حتى يقول بعضهم في حال نزعه: واطرباه! غدًا نلقى الأحبة محمدًا وحزبه.

رابعًا ـ ومن آثار اللامبالاة بالذنوب «ظلمة القلب»: ظلمة يجدها في قلبه حقيقة يحس بها كما يحس بظلمة الليل البهيم إذا إدْلَهمَّ، فتصير حقيقة المعصية لقلبه كالظلمة الحسية لبصره، فإن الطاعة نور، وإن المعصية ظلمة، وكلما قويت ازدادت حيرته، حتى يقع في البدع والضلالات والأمور المهلكة، حتى وهو لا يشعر كأعمى خرج من ظلمة الليل يمشي وحده، وتقوى الظلمة حتى تظهر في العين ثم تقوى حتى تعلو الوجه، وتصير سوادًا فيه، يراه كل أحد؛ قال عبد الله بن عباس: إن للحسنة ضياءً في الوجه، ونورًا في القلب، وسعة في الرزق، وقوة في البدن، ومحبة في قلوب الخلق.

---

(١) «إغاثة اللهفان» (ص ٢٠).

خامسًا ـ ومن آثار اللامبالاة بالذنوب «أنها تعمي القلب»: فإن لم تعمه أضعفت بصيرته ولابد . . فإذا عمي القلب وضعف فاته من معرفة الهدى وقوته على تنفيذه في نفسه، وفي غيره بحسب ضعف بصيرته وقوته، فإن الكمال الإنساني مداره على أصلين: معرفة الحق من الباطل، وإيثاره عليه، وما تفاوتت منازل الخلق عند الله تعالى في الدنيا والآخرة إلا بقدر تفاوت منازلهم في هذين الأمرين، وهما اللذان أثنى الله سبحانه على أنبيائه بهما في قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ﴾ (ص: ٤٥).

فالأيدي: القوى في تنفيذ الحق.

والأبصار: البصائر في الدين. فوصفهم بكمال إدراك الحق، وكمال تنفيذه، وانقسم الناس في هذا المقام أربعة أقسام، هؤلاء أشرف الأقسام من الخلق وأكرمهم على الله تعالى.

القسم الثاني ـ عكس هؤلاء، من لا بصيرة له في الدين، ولا قوة على تنفيذ الحق، وهم أكثر هذا الخلق، وهم الذين رؤيتهم قذى العيون وحمى الأرواح، وسقم القلوب، ويضيقون الديار، ويغلون الأسعار، ولا يستفاد بصحبتهم إلا العار والشنار.

القسم الثالث ـ من له بصيرة بالحق ومعرفة به، لكنه ضعيف لا قوة له على تنفيذه، ولا الدعوة إليه، وهذا حال المؤمن الضعيف، والمؤمن القوي خير وأحب إلى الله منه.

القسم الرابع ـ من له قوة وهمة وعزيمة، لكنه ضعيف البصيرة في الدين لا يكاد يميز بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، بل يحسب كل سوداء تمرة، وكل

بيضاء شحمة، يحسب الورم شحمًا، والدواء النافع سمًا، وليس في هؤلاء من يصلح للإمامة في الدين، ولا هو موضع لها سوى القسم الأول . . فمعلوم أن المعاصي والذنوب تعمي بصيرة القلب، فلا يدرك الحق كما ينبغي، وتضعف قوته، وعزيمته فلا يصبر عليه، بل قد يتوارد على القلب حتى ينعكس إدراكه كما ينعكس سيره، فيدرك الباطل حقًا، والحق باطلاً، والمعروف منكرًا، والمنكر معروفًا، فينتكس في سيره ويرجع عن سفره إلى الله والدار الآخرة، إلى سفره إلى مستقر النفوس المبطلة، التي رضيت بالحياة الدنيا، واطمأنت لها، وغفلت عن طاعة الله وآياته، وتركت الاستعداد للقائه، ولو لم يكن في عقوبة الذنوب إلا هذه العقوبة وحدها، لكانت داعية إلى تركها والبعد عنها ـ والله المستعان ـ.

وهذا كما أن الطاعة تنور القلب، وتجلوه وتصقله وتقويه، وتثبته حتى يصير كالمرآة المجلوة في جلائها وصفائها، فيمتلئ نورًا، فإذا دنا الشيطان منه أصابه من نوره ما يصيب مسترق السمع من الشهب الثواقب، فالشيطان يفرق من هذا القلب أشد من فرق الذئب من الأسد، حتى إن صاحبه ليصرع الشيطان فيخر صريعًا، فيجتمع عليه الشياطين فيقول بعضهم: ما شأنه، فيُقال: أصابه إنسي وبه نظرة من الإنس.

فيا نظرة من قلب حر منور ... يكاد له الشيطان بالنور يحرق

أفيستوي هذا القلب وقلب مظلمة أرجاؤه مختلفة أهواؤه قد اتخذه الشيطان وطنه وأعده مسكنه، إذا تصبح بطلقته حيَّاهُ، وقال: فديت من قرين لا يفلح في دنياه ولا في أخراه.

قرينك في الدنيا وفي الحشر بعدها ... فأنت قرين لي بكل مكان
فإن كنت في دار الشقاء فإنني ... وانت جميعًا في شقا وهوان

وهكذا يصبح قلب العبد مظلم لكثرة ما يورد عليه من الذنوب، فتراه يبصر الحق باطلاً، فالعفة والطهارة أصبحت رجعية وتخلف، والسنة أضحت لديه بدعة، والالتزام أصبح إرهابًا وأصولية . . وهلم جرا، فهذا قائدهم إلى النار فرعون يقول في موسى عليه السلام: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ (غافر:٢٦)، وهؤلاء قوم لوط يقولون في لوط وأتباعه: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ (الأعراف:٨٢)، قال حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«تعرض الفتن على القلوب كعرض الحصير عوداً عوداً، فأي قلب أُشربها نكت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء، حتى تعود القلوب على قلبين: قلب أسود مرباد كالكوز مجخيًا لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكراً، إلا ما أشرب من هواه، وقلب أبيض لا تضره فتنة مادامت السموات والأرض»**.

ثانيًا - أثر اللامبالاة بالذنوب والمعاصي على البدن:

والذنوب تؤثر على البدن والجوارح، فكما أن أصحاب الطاعات والقربات ترى في وجوههم نور الطاعة، وبهاء العبادة، وصدق الله: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم﴾ (الفتح:٢٩)، كذلك المعصية تؤثر على العبد، فرؤياهم قذى العيون وإن من الخلق خلقًا إذا جالستهم أو كلمتهم مرض قلبك، فإياك وإياهم، وهيا لترى أثر الذنوب على البدن:

١ ـ أنها تورث صاحبها الذل، وتلبسه ثوب المهانة، وصدق الله: ﴿وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ﴾ (الحج:١٨)، يقول ابن القيم: ومنها: أن المعصية تورث الذل ولابد فإن العز كل العز في طاعة الله، قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ (فاطر:١٠)، أي: فيطلبها في طاعة الله، فإنه لا يجدها إلا في طاعة الله، وكان من دعاء بعض السلف: اللهم أعزني بطاعتك، ولا تذلني بمعصيتك، وقال الحسن

البصري: إنهم وإن طقطقت بهم البغال وهملجت بهم البراذين إن ذل المعصية لا يفارق قلوبهم، أبى الله إلا أن يذل من عصاه، قال عبد الله بن المبارك:

رأيت الذنوب تميت القلوب ... وقد يورث الذل إدمانها

وترك الذنوب حياة القلوب ... وخير لنفسك عصيانها

وهل أفسد الدين إلا الملوك ... وأحبار سوء ورهبانها

٢- أنها تطفئ الغيرة من القلب، فتراه يرتكب المناهي والفواحش، ولا يغار وتراه يبصر التبرج والسفور على زوجته وبناته، ولا يغار، لأنه ألف المعصية، وأصبح لا يبالي بها وقعت عليه أو وقعت على نسائه وبناته، وهذا هو الديوث الذي ذمه النبي ﷺ، بل ربما تراه يفتخر بها بين الناس، ويأمر بها بناته، فهذا رجل رأى ابنته ارتدت الحجاب، فقامت الدنيا ولم تقعد حتى خلعت الابنة حجابها، لأنه يرضى لها الفاحشة.

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «**ثلاثة لا يدخلون الجنة: العاق لوالديه، والديوث، ورجلة النساء**»[(١)]، وعنه أيضًا قال: «**ثلاثة قد حرم الله عليهم الجنة: مدمن الخمر، والعاق لوالديه، والديوث الذي يقر الخبث في أهله**»[(٢)].

ثالثًا - آثار اللامبالاة بالذنوب والمعاصي على المجتمع:

إن الذنوب والمعاصي لها أثرها الخطير على المجتمع، والذي يتدبر التاريخ يجد أن أسباب هلاك الأمم وإبادتها كانت الذنوب والمعاصي، فبالذنوب: أغرق الله أهل الأرض، حتى علا الماء فوق رؤوس الجبال، وسلط الريح على قوم

---

(١) رواه النسائي والبزار والحاكم وصححه.

(٢) رواه أحمد والحاكم، وقال: صحيح الإسناد.

obeikandl.com

عاد، حتى ألقتهم موتى على وجه الأرض، كأنهم أعجاز نخل خاوية، وما الذي أرسل على قوم ثمود الصيحة حتى قطعت قلوبهم في أجوافهم وماتوا عن آخرهم؟، وما الذي رفع اللوطية حتى سمعت الملائكة نبيح كلابهم ثم قلبها عليهم، فجعل عاليها سافلها، فأهلكهم جميعًا، ثم أتبعهم حجارة من السماء أمطرها عليهم، فجمع عليهم من العقوبة ما لم يجمعه على أمة غيرهم ولإخوانهم أمثالها، وما هي من الظالمين ببعيد؟، وما الذي أرسل على قوم شعيب سحاب كالظل، فلما صار فوق رؤوسهم أمطر عليهم نارًا تلظى؟.

وما الذي أغرق فرعون وقومه في البحر ثم نقلت أرواحهم إلى جهنَّم، فالأجساد للغرق والأرواح للحرق؟.

وما الذي خسف بقارون وداره وماله وأهله؟.

وما الذي أهلك القرون من بعد نوح بأنواع العقوبات، ودمرهم تدميرًا؟، وما الذي أهلك قوم صاحب يس بالصيحة حتى خمدوا عن آخرهم؟، وما الذي بعث على بني إسرائيل قومًا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار، وقتلوا الرجال وسبوا الذرية والنساء، وأحرقوا الديار ونهبوا الأموال، ثم بعثهم عليهم مرة ثانية، فأهلكوا ما قدروا عليه وتبَّروا تتبيرًا؟، وما الذي سلط عليهم أنواع العقوبات مرة بالقتل، والسبي، وخراب البلاد، ومرة بجور الملوك، ومرة بمسخهم قردة وخنازير، وآخر ذلك أقسم الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾ (الأعراف: ١٦٧).

قال الإمام أحمد: عن جبير بن نفير عن أبيه، قال: لما فتحت قبرص فرق بين أهلها، فبكى بعضهم إلى بعض، فرأيت أبا الدرداء يبكي، فقلت: «يا أبا

الدرداء ما يبكيك في يوم أعزَّ الله فيه الإسلام وأهله؟، فقال: «ويحك يا جبير، ما أهون الخلق على الله - عَزَّ وَجَلَّ - إذا أضاعوا أمره، بينما هي قاهرة ظاهرة لهم الملك، تركوا أمر الله فصاروا إلى ما ترى»[1][2].

فتلك كانت نظرة عامة لأثر الذنوب على العباد والبلاد، وهيا لنقف مع بعض الآثار أيضًا المترتبة على اللامبالاة بالذنوب على المجتمع، بل على جميع الكائنات لنرى ظلم الإنسان لنفسه وغيره.

أولاً - من آثار اللامبالاة بالذنوب والمعاصي على المجتمع «أنها تمحق البركة»:

يقول ابن القيم - رحمه الله -: ومن عقوباتها: أنها تمحق بركة العمر، وبركة الرزق، وبركة العلم، وبركة العمل، وبركة الطاعة، وبالجملة تمحق بركة الدين والدنيا، فلا تجد أقل بركة في عمره ودينه ودنياه ممن عصى الله، وما محقت البركة من الأرض إلا بمعاصي الخلق، قال الله تعالى: ﴿**وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ**﴾ (الأعراف:٩٦)، وقال تعالى: ﴿**وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ**﴾ (الجن:١٦-١٧)، وإن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه، وفي الحديث: «**إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها. فاتقوا الله وأجملوا في الطلب. فإنه لا ينال ما عند الله إلا بطاعته**»[3]، وفي الحديث: «**وإن الله جعل الروح والفرح في الرضى واليقين، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط**»[4].

---

(١) «الداء والدواء» (ص٩٨-٦٠).

(٢) إسناده صحيح: أخرجه أحمد في «الزهد» (١٧٦).

(٣) صحيح بشواهده: أخرجه الطبراني رقم (٧٨٩٤) في «الكبير»، وأبو نعيم في «الحلية» عن أبي أمامة.

(٤) ضعيف عن ابن مسعود، أخرجه الطبراني (جـ ٢) - (ص٤٠١٩)، والحاكم (جـ ٤) - (ص٥٤٠)، صححه الألباني في «الصحيحة» (١٠٦).

وقد تقدم في الأثر الذي ذكره أحمد في كتاب (الزهد): «أنا الله إذا رضيت باركت، وليس لبركتي منتهى، وإذا غضبت لعنت، ولعنتي تدرك السابع من الولد»[١].

وإذا أردت أن نتحدث عن قلة البركة في هذا العصر الذي أصبحت الذنوب فيه كالذباب، إذا جاء على أنف أحدهم فنجدها عامة، فهذا يشتكي قلة المال والبركة لأنه لم يراعِ الله في عمله الوظيفي، وهذا عنده الأموال ويشتكي قلة بركتها لأنه جمعها من الربى والسرقة، وهذا يشتكي قلة البركة في الأبناء، لأنه كان عاقًا لوالديه.

ثانيًا ـ ومن آثار الذنوب والمعاصي واللامبالاة بها على المجتمع:

ما جاء في خماسية الشقاء الاجتماعي الذي حذر منها النبي ﷺ ومن شرها، فعن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، قال: كنت عاشر عشرة رهط من المهاجرين عند النبي ﷺ، فأقبل علينا رسول الله ﷺ بوجهه فقال: «**يا معشر المهاجرين، خمس خصال أعوذ بالله أن تدركوهن: ما ظهرت الفاحشة في قوم حتى أعلنوا بها إلا ابتلوا بالطواعين والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم الذين مضوا، ولا نقص قوم في المكيال والميزان إلا ابتلوا بالسنين وشدة المؤنة وجور السلطان، وما منع قوم زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء، فلولا البهائم لم يمطروا، ولا خفر قومٌ العهد إلا سلط الله عليهم عدواً من غيرهم، أخذوا بعض ما في أيديهم، وما لم تعمل أئمتهم بما أنزل الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ في كتابه إلا جعل الله بأسهم بينهم**»[٢].

فانظر ـ يرعاك الله ـ إلى نتائج اللامبالاة بالقبائح والآثام:

---

(١) «الداء والدواء» (١٠-١١٢).

(٢) حديث حسن: أخرجه ابن ماجه (جـ ٢) ـ (ص٤٠١٩)، والحاكم (جـ ٤) ـ (ص٥٤٠)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٠٦).

الخصلة الأولى - «ما ظهرت الفاحشة في قوم حتى أعلنوا بها إلا ابتلوا بالطواعين والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم الذين مضوا»: وهيا لترى عن قرب نتيجة اللامبالاة بالفواحش، ما ظهر منها وما بطن، لترى نتيجة الخروج عن الفطرة، إن البشرية تدفع ضريبة باهظة من الأموال والأرواح نتيجة للذنوب والمعاصي، فقد نشرت مجلة الوعي الإسلامي في رمضان ١٤٢٠هـ تلك الإحصائية: ١٦ ألف يصابون بالإيدز يوميًا في العالم، أكثر من ٨ مليون طفل فقد أمه أو أبوه في العالم بسبب الإيدز، قد تُوفي العام الماضي ٢/٣ مليون بسبب الوباء، ففي الولايات المتحدة الأمريكية حسب تقرير نشر في عام ١٩٨٣، وذلك كمثال ١٢/٥ مليون طفل مع أمهاتهم، لأنهم لا يعرفون لهم آباء غير الذين ترعاهم دور الرعاية الاجتماعية.

واللاتي يلدن سفاحًا في سن المراهقة أكثر من مليون امرأة سنويًا حسب إحصائيات ١٩٨٨/٧٩، وقد قدرت منظمة الصحة العالمية عدد الحالات التي يتم لها إجهاض جنائي في العالم بحوالي ٢٥ مليون طفل سنة ١٩٧٦، وقد ارتفع العدد إلى ٥٠ مليون حالة إجهاض سنويًا في عام ١٩٨٤ حسب ما نشرته مجلة التايم الأمريكية، والزواج هناك أمر شكلي، فالخيانة الزوجية حسب تقرير نشر في عام ١٩٨٠ تشكل ٧٥% من الأزواج والزوجات، لذلك فهناك حالة طلاق بين كل حالتي زواج.

أما حجم الجريمة بين رجال الكنيسة، ففي تقرير نشرته مجلة الدلي ميل ١٩٧٠ أن حوالي ٨٠% من الرهبان يمارسون الزنا، وأن ما يقرب من ٤٠% يمارسون الشذوذ الجنسي؛ والسيلان يتصدر هذه الأمراض الجنسية شيوعًا في العالم، إذ يتراوح الرقم المثبت في الإحصائيات ٢٥٠ مليون سنويًا، وصدق

رسول الله ﷺ فيما قال، فهؤلاء لم يبالوا بالذنوب والفاحشة، فكان جزاؤهم الإيدز الذي لم يعرف له العلم دواء.

الخصلة الثانية - «ولا نقص قومٌ المكيال والميزان إلا ابتلوا بالسنين وشدة المؤنة وجور السلطان»: فحدث عما أصاب المجتمع من أزمات اقتصادية، ومن شدة الفقر والفاقة، ومن جور الحكام وظلمهم، لماذا؟، لأن الرعية لم تبال بنقص المكيال والميزان، رغم أنهم يقرءون قول المولى - سبحانه وتعالى -: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ① الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ② وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ (المطففين: ١-٣).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «**القتل في سبيل الله يكفر الذنوب كلها، إلا الأمانة**»، قال: «**يؤتى بالعبد يوم القيامة، وإن قتل في سبيل الله يُقال له: أد أمانتك، فيقول: أي رب وقد ذهبت الدنيا؟ قال: انطلقوا به إلى الهاوية، فينطلق به إلى الهاوية، وتمثل له أمانته كهيئتها يوم دفعت إليه فيراها فيعرفها، فيهوي في أثرها أبد الآبدين**»، ثم قال: «**الصلاة أمانة، والوضوء أمانة، والوزن أمانة، والكيل أمانة، وأشياء عددها، وأشد ذلك الودائع**»، قال - يعني: «زاذان» -: فأتيت البراء بن عازب، فقلت: «**ألا ترى إلى ما قال ابن مسعود**»، قال: «**كذا**»، وقال: «**كذا**»، قال: «**صدق، أما سمعت الله يقول: إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى إهلها**»[1].

الخصلة الثالثة - «وما منع قوم زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء، فلولا البهائم لم يمطروا»: وهنا يظهر أثر الجشع والبخل على المجتمع يعم جميع الكائنات، لأن أفراد الأسرة الإنسانية بخلوا بما حباهم الله من فضله، فكان جزاؤهم أن أصابهم القحط، ولولا رحمة الله بتلك البهائم الرتع والأطفال

(١) رواه البيهقي موقوفًا ورواه أحمد، وحسنه الألباني في «الترغيب» رقم (١٧٣٦).

الرضع والشيوخ الركع، لم تمطر السماء، ولا مات الجميع، وصدق النبي ﷺ عندما أوضح لنا في ذلك التحذير من الشح والبخل أنه سبب من أسباب هلاك الأمم، قال رسول الله ﷺ: «اتقوا الظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح، فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم، واستحلوا محارمهم»[(١)]، وقال ﷺ: «إياكم والشح، فإنما هلك من كان قبلكم بالشح، أمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا، وأمرهم بالفجور ففجروا»[(٢)].

الخصلة الرابعة - «ولا خفر قوم العهد إلا سلط الله عليهم عدواً من غيرهم، فأخذوا بعض ما في أيديهم»: هذا هو جزاء من نقض العهد، وما ابتليت الأمة الإسلامية بتسلط أحفاد القردة والخنازير إلا بسبب نقضهم العهد، فها هو الأقصى الأسير يئن تحت أقدام الأقذام من شذاذ العالم، والسبب في ذلك أنهم نقضوا عهد الله وميثاقه، وصدق الله إذ يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (النور: ٦٣)، وقال ﷺ: «بعثت بالسيف بين يدي الساعة حتى يعبد الله وحده، وجعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعلت الذلة والصغار على من خالف أمري، ومن تشبه بقوم فهو منهم»[(٣)]، «وما لم تعمل أئمتهم بما أنزل الله - عَزَّوَجَلَّ - في كتابه إلا جعل الله بأسهم بينهم»، يقول - سبحانه وتعالى -: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ (طه: ١٢٤)، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «حدٌ يعمل في الأرض خير لأهل الأرض أن يمطروا أربعين صباحاً»[(٤)].

---

(١) رواه مسلم (جـ ١٦) - (ص ١٣٤)، وأحمد (جـ ٣) - (ص٣٢٣).
(٢) رواه أبو داود رقم (١٦٨٢)، والحاكم (جـ ١) - (ص١١).
(٣) رواه أحمد، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٢٨٢٨).
(٤) رواه النسائي وابن ماجه، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٣١٢٥).

ومن آثار اللامبالاة بالذنوب: شؤم المعصية على الخلق كلهم:

ليت العاصي حين يعصي يضر نفسه فحسب، لكنه يضر كل من حوله الإنس والجن، الحيوان والشجر، فذنبه متعدي الضرر، وإن بدا في ظاهره أنه لم يؤذِ غيره، ولم يصب أحداً.

صحح أبو هريرة رضي الله عنه هذا الفهم الخاطئ حين سمع رجلاً يقول: إن الظالم لا يظلم إلا نفسه، قال أبو هريرة: «**كذبت والذي نفسي بيده إن الحباري** - نوع من الطيور - **لتموت في وكرها من ظلم الظالم**»، وليس أبو هريرة وحده من أصحاب رسول الله ﷺ من يؤكد هذا، فهذا أنس بن مالك يقول: «**كاد الضب يموت في جحره هزلاً من ظلم بني آدم**»، وقال مجاهد في تفسير قوله تعالى: ﴿**وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ**﴾ (البقرة:١٥٩)، دواب الأرض والعقارب والخنافث منعت القطر بخطاياهم.

ومن آثار اللامبالاة بالذنوب: أنها تحدث الفساد في الأرض:

يقول ابن القيم - رحمه الله -: ومن آثار الذنوب والمعاصي أنها تحدث أنواعًا من الفساد في المياه والهواء والزرع، والثمار والمساكن، قال تعالى: ﴿**ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**﴾ (الروم:٤١)، قال مجاهد، إذا ولي الظالم سعى بالظلم والفساد، فيحبس الله بذلك القطر، فيهلك الحرث والنسل، والله لا يحب الفساد، ثم قرأ الآية السابقة: ﴿**ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**﴾ (الروم:٤١)، ثم قال: أما والله ما هو بحركم هذا ولكن كل قرية على ماء جار، فهو بحر وقال عكرمة: ظهر الفساد في البر والبحر، إني لا أقول بحركم هذا، ولكن كل قرية على ماء.

obeikandl.com

قلت ـ ابن القيم ـ: أراد أن الذنوب سبب الفساد الذي ظهر، وإن أراد الفساد الذي ظهر هو الذنوب نفسها، فتكون اللام في قوله: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ لام العاقبة والتعليل، وعلى الأول: فالمراد بالفساد النقص والشر والآلام التي يحدثها الله في الأرض عند معاصي العباد، فكلما أحدثوا ذنبًا أحدث الله لهم عقوبة، كما قال السلف: كلما أحدثتم ذنبًا أحدث الله لكم من سلطانه عقوبة، والظاهر ـ والله أعلم ـ أن الفساد المراد به الذنوب وموجباتها، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾، فهذا حالنا، وإنما أذاقنا الشيء اليسير من أعمالنا، ولو أذاقنا كل أعمالنا لما ترك على ظهرها من دابة[١].

---

(١) «الداء والدواء» (ص٨٧-٨٨).

obeikandl.com